لقد فتحتُ النافذة

وهيبة حسين

«أنت يا بنت غلّبتِ أمك في الولادة كثير، طوّلتي لما انزلتي، كنا خايفين عليها كثير». هذا ما ردده دوماً أبي على مسامعي، لا يهم، فتكفيني محبة أمي لي، فأنا أشعر وكأن ما مررنا به سوياً خلق بيننا تعلقاً خاصاً وعلاقة مميزة.

مرت السنوات وها أنا ألتحق بروضة صغيرة في قريتنا كانت تفتح أبوابها لبعض الشهور، ومن ثم تعود فتغلقها. بين تلك الفترات كنت أعيش أجمل الأوقات التي ما زالت تتقد في ذاكرتي ابتداء من «العصرونة» المكونة من خبز الطابون والزيت والزعتر، إلى مجموعة الأصدقاء الذين كانت تجمعني بهم ظلال شجرة التين الكبيرة، إلى الكراسي الخشبية المربعة التي تشبه كراسي دكان العم أبو علي، إلى أغنية رددتها في الروضة ونقلتها إلى أولادي وأحفادي، وكانت كلماتها:

لولوليتا راكب بسكليتا
ايمتى يجي بابا
بيجي الساعة سته

أستغرب وأتعجب ممن يقولون ماذا يتذكر الأطفال من سنوات الروضة، فما أكثر ما أتذكره من روضتي. دخلت المدرسة بشغف كبير، وتركت لدي العديد من الذكريات، فما زلت أذكر أستاذ العلوم الذي كنا ننتظر دخوله إلى الصف بشغف وترقب متسائلين: يا ترى ماذا سيحضر لنا في حصته؟ هل هي الفراولة، أم حبات الجوز، أم نبتة القطن، أم أحد أنواع الطيور؟ وما زلت أذكر، أيضاً، الصوت المرتفع والسوط اللذين كانا وسيلتين تعليميتين يستخدمهما معلم اللغة العربية في إيصال المعلومة لنا.

غربلت ذكرياتي ... ومضيت قدماً

أنهيت دراسة التوجيهي بينما كانت أحداث الانتفاضة الأولى مشتعلة، وتزوجت رغم شغفي وحلمي بأن أكمل تعليمي، لكن الظروف المادية لأسرتي وزوجي لم تسمحا بذلك، وبقيت غصة في قلبي «أنا مكاني ليس في البيت، ولازم أعمل شيء». في أحد الأيام، طلب مني أن أعمل في روضة كمتطوعة وبديلة لمعلمة كانت في إجازة، ومن هنا بدأت رحلتي كمربية. لا أخفي أني كنت أشعر بصداع لمدة أيام بسبب ضجيج الأطفال، وواجهت صعوبات في إيجاد طريقة تواصل بيني وبينهم. وتساءلت كثيراً: هل ينضبط الأطفال بالصوت المرتفع مثل أصواتهم؟

كان أمامي خياران؛ إما أن أعود أدراجي إلى البيت وإما أن أقبل التحدي، لكنني اخترت الثاني مصممة على أن التجربة تستحق، وبأنها حتماً ستضيف لي. عبرت التجربة واجتزت الكثير من الدورات التدريبية الخاصة بهذه المرحلة، جربت وحاولت كثيراً، أحياناً نجحت

وأحياناً أخرى ضعفت، لكن عبر الممارسة استطعت أن أبني قنوات للتواصل مع الأطفال عبر الإصغاء لهم، وتفريغ طاقتهم، وتلبية احتياجاتهم، ومراقبتهم، والاهتمام بكل طفل، وإبراز قدراته.

«القطان» .. شغف وفضول

أثناء انتقالي من قريتي إلى رام الله كنت أمر من أمام باب مؤسسة عبد المحسن القطان، فينتابني الفضول، فأتساءل: يا ترى الناس الذين يعملون هناك، هل لهم علاقة برياض الأطفال؟ وهل يقدمون تدريبات لمعلمات الطفولة؟ وفي أحد الأيام، أبلغتنا المديرة بأن هناك دورات لمربيات الطفولة في تلك المؤسسة، فهرعت إلى التسجيل والالتحاق بها، ها أنا في السنة الثالثة في البرنامج، وما زال فضولي يتجدد، وما زلت أتعلم كيف أكون المربية التي تعمل وتتطور وهي تعلم أطفالها، وترى صوراً جديدة لها في عيونهم.

تمر خمس سنوات وأنا ما زلت ملتزمة في مساقات وفعاليات مؤسسة «القطان» التي أعتبرها أجمل وأعمق مؤسسة والأكثر عطاء. فهي نافذه جديدة متجددة دوماً، استطعت من خلالها أن أحدث الكثير من التغيرات في مسيرتي كمربية. ساهمت هذه التغيرات في تطوير أطفالي وروضتي ومجتمعي معاً. اكتسبت منها العديد من المعارف الجديدة؛ فالتعلم عبر المشروع وعبر التجربة، التعلم والتعليم، تبادل الأدوار والتعلم بالمجاورة، المراقبة الذاتية والتأمل في الفعل، الدراما وعباءة الخبير، جميعها مصطلحات ومفاهيم جديدة دخلت إلى مجال عملي، وعايشتها من خلال تجاربي، وأصبحت منهجاً جديداً لي في مسيرتي التعليمية، وفي حياتي. فعبر هذا المسار، صممت مشروعات تعليمية بمرافقة باحثين من «القطان»، ومعلمين آخرين لديهم خبرة في هذا المجال يُطلق عليهم مركزون، ساعدوني في تركيز أفكاري وتطوير مخططاتي، وفي قراءة أفعالي أثناء التطبيق، هكذا أصبحت أكثر تمكناً

جانب من تطبيقات المربية وهيبة حسين مع أطفال روضة «السلام» في بيت دقو.

من الدراما، والتعلم عبر المشروع، ونهج عباءة الخبير. كذلك، من خلال البرنامج، التقيت مع آخرين، كما لو أنهم من عالم آخر، معلمة بريطانية تشاركني صفي، نعلم معاً، أصابني قلق وعندما قلت لطلابي سألوني هل يتكلمون اللغة العربية أم العبرية؟ قلت لهم يتكلمون اللغة الإنجليزية، بحثنا معاً كيف نرحب بهم بلغتهم.

ساهم باحثو القطان في جسرة الهوة بيننا كمعلمتين من عالمين مختلفين، عملنا معاً على التخطيط، ثم علمنا معاً، حينها اكتشفت كم نحن متشابهتان، سقطت فوارق اللغة، والجنسية، والدين، لقد تجاوزنا كل الفوارق لأننا كنا نفكر في الأطفال، ونفكر معهم، الأطفال كانوا أسرع مني تقبلاً لها، فأشركوها في مشروعنا، وأحبوا وجودها معنا، لم يعد لدي قلق بسبب وجودها في صفنا، في نهاية اللقاء ودعتها كصديقة لأستقبلها في العام التالي باعتبارها من أهل البيت.

من الأطفال تعلمت أكثر، علمتهم بواسطة الدراما، وتعلمت منهم كيف يجب أن نكون مرحبين بالآخر؛ سواء أكان ضيفاً أم فكرة، تعلمت منهم استقبال كل ما هو جديد، قبوله ودمجه فيما نعرف وفيما نريد، الأطفال قالوا لي: «مس المعلمة البريطانية لما أجت حكت لنا (هالو)، لكن لما روحت حكت لنا «شكراً لكم»، يعني صارت مثلنا، ونحن قلنا لها (ثانك يو) يعني صرنا مثلها». منهم تعلمت كيف أمسك اللحظة وأعيشها وأعود بها إلى طفولتي، أسمع موسيقى اللحظة وأجد لها شبيها هناك عندما كنا نسمع صوت الهاون يدق في غرفة جدي، لقد فتحت النافذة بين الروضة وغرفة جدي، بين فلسطين وبريطانيا بين نفسي والعالم.

الروضة مرة أخرى

عدت، مرة أخرى، إلى الروضة، لكنني الآن أنا المعلمة. من الأشياء الجميلة المحفورة في داخلي هي الرسائل التي أستلمها من الأطفال نهاية كل عام، رسائل يعبرون فيها عن حبهم، ويقومون برسم صور لي داخلها، كم هو جميل أن أرى نفسي في هذه العيون الصغيرة، هذه هي الطاقة التي ساعدتني على الاستمرار في مسيرتي كمربية.

روضة السلام- بيت دقو

المربية وهيبة حسين مع أطفال الروضة خلال أحد الأنشطة.